السلوكيات الفاعلة في تنميط الشخصية العراقية

د. رباح مجيد الهيتي

المقدمة:

من الصعب دراسة الشخصية العراقية وإطلاق تعميمات بخصوصها لكونها تعيش في مجتمع غير متجانس تعددي تكثر فيه القوميات والديانات والمذاهب، إلا أننا سنحاول جادين إبراز الأنماط التي تعارف عليها أغلب العراقيين ومن خلال التجارب العراقية التي سيرد ذكرها وبالتحديد في الفترة «١٩٧٩-٢٠١٢»، وهذا لا يعني أننا نقتطع هذه الشخصية عن تراثها وتاريخها البعيد؛ لأننا لم نوغل في دراسة هذا التاريخ، لكن يمكن القول بأنه حتى التاريخ التراكمي، فما حصلت عليه الشخصية من نمط هو أيضا سليل لأحداث تاريخية بعيدة، وقد انتهجنا منهجا مخالفا لما سبق دراسته للشخصية العراقية، فقد اعتمدنا في أغلب تحديدنا للسلوكيات الفاعلة وأثرها في تنميط الشخصية العراقية على دراسات ميدانية حديثة في محاولة لاستقراء أنماط الشخصية العراقية، وما نريد الوصول إليه هو أن الشخصية العراقية هي وليد ونتاج التفاعل الاجتماعي، ومن خلال هذا التفاعل يكون الشخص طرفا فاعلا ومؤثرا ومتأثرا في الأحداث التي تمر به، فيكتسب ويعدل ويغير من سلوكياته بما يتناسب مع الظروف الاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها، وبما أن هذه الظروف التي ولدت هذه السلوكيات كانت أغلبها قاسية وصعبة لذلك أفرزت أنماطا شخصية ملائمة لها قد تكون سلبية عند البعض لكنها واقع مفروض، ولكوننا شرقيين، وبذلك فنحن انتقاديون، غالبا ما نشخص السلوكيات التي تحتاج إلى تقويم وانتقاد، وهذه سمة قد تكون بارزة في كتاباتنا وملاحظاتنا، وهذا لا يعني أن الشخصية العراقية تخلو من الأنماط الشخصية الإيجابية، فهي معروفة بالكرم والشهامة والمروءة كأنماط إيجابية حميدة. وفي هذه الدراسة حاولنا أن نبين السلوكيات الفاعلة في تنميط الشخصية العراقية التي تحتوي على مبادئ ومعارف فكرية تحركنا كعراقيين لنصل إلى شخصية منمطة بحسب ما تتميز به من سمات فكرية وذهنية موروثة ومكتسبة تحركنا وتسيطر على سلوكياتنا وأفعالنا لتميزنا عن غيرنا. وبذلك يمكن أن نتوصل إلى نمط لهذه الشخصية الاستقرار القيمي والفعل المعياري، وأهم الأنماط الأساسية للشخصية العراقية كما توصلنا إليها، هي أنها شخصية:

١. متحملة.
٢. متذمرة.
٣. متهيجة.
٤. مظهرية.
٥. عنيفة.

مشكلة البحث:

برزت سلوكيات ومفردات جديدة أثرت في تنميط شخصية العراقي، كانت نتيجة للضغوط الاجتماعية التي سلطت على هذه الشخصية، هذه المفردات على الرغم من سلبياتها فإن أغلب العراقيين صاروا يتعارفون بها ويتفاعلون معها، ومن أمثلة هذه المفردات كلمة «حواسم» التي تشير إلى أخذ الشيء بدون حق، وربما عن طريق العنف أو تجاوزات، ويعني الاستقرار أو تشييد أبنية على المال العام وبتحدٍ. أو مفردة «العبوات اللاصقة» أو أي شيء يدل على القتل والعنف مما أعطت انطباعات، ولاسيما لغير العراقيين على أن العراقي شخصية مجردة من الفضائل، تؤمن بالفوضى والسلب والنهب والقتل والعنف، لكنها متحملة ذلك بشكل ساخط وبتذمر وردود أفعالها سريعة ومتهيجة، تدعي المظاهر لقبول ورفض الكثير من التصرفات أو تقصد هذه المظهرية كنمط اعتادت عليه. هذه المفردات كانت الدافع المحرك الذي ولد الشعور لملاحظة ودراسة الأنماط الشخصية الناتجة عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي خاضها المجتمع والتي انعكست بالتالي على الشخصية العراقية.

أهمية البحث:

تنصب أهمية البحث في الكشف عن الأنماط البارزة في الشخصية العراقية في العصر الحديث، والتي أسفرت عن مواقف متباينة لدى دارسي هذه الشخصية إذ يصر البعض على أن الشخصية العراقية طيبة كريمة مسالمة، وأن الذي حصل من اضطرابات وعنف هو استثناء ووقتي، فيما يرى البعض الآخر أن الضغوطات التي انصبت على الشخصية العراقية هي ليست هينة وسهلة، وإنما طبعت بصمتها على الشخصية العراقية ولاسيما أن الشخصية هي ليست ثابتة أو مستقرة، وأنها تتفاعل وتستجيب للظروف المحيطة بها، لذلك سيلقي هذا البحث الضوء على السلوكيات الفاعلة في تنميط الشخصية العراقية.

أهداف البحث:

يسعى البحث إلى تسليط الضوء على أهم الأحداث والتجارب التي أسهمت في تنميط الشخصية العراقية وتشخيص ووصف هذه الأنماط.

أولا: المفاهيم:

١. السلوك *Behaviour*

هو «استجابة الفرد بأقوال أو أعمال أو أفكار لحالات تواجهه بها بيئته»[١]، هذه الاستجابات قد تكون ظاهرية حركية كما هو في حالة الانفعال والغضب والتهيج، وقد تكون داخلية يصعب ملاحظتها، ولكن يستدل على وجودها من مظاهر أخرى، كالتذكر والتفكير والإبداع. وقد تكون هذه الاستجابات على شكل تفاعلات اجتماعية رفض أو قبول أو عداوة أو سيطرة أو خضوع، فهذه الاستجابات متنوعة في مصادرها وآثارها على الفرد والمجتمع.

وقد عرفه «ميللر *Lawernee Miller*» بأنه كل ما يقوله أو يفعله أو يفكر به الفرد[٢]. ويتخذ السلوك الإنساني أشكالا مختلفة ومتباينة، فقد توجد قوى مؤثرة تحدد السلوك، وهي:

١. وجود عدد من الدوافع والقوى الداخلية تعمل على توجه السلوك الإنساني في اتجاه المحافظة على الحياة والبقاء.

٢. وجود قوى اجتماعية وثقافية تؤثر تأثيرا شديدا على أسلوب وأنماط السلوك في المجتمع الذي يوجد فيه.

٣. سلوك الفرد يخضع لتأثير ثقافة الجماعات المباشرة التي يعيش معها كالعائلة والأقارب والجيران وجماعات الأصدقاء وجماعات العمل، والتي تؤثر في تفكيره وتحدد أنماط سلوكه، لكي يتماثل مع هذه الجماعات التي يعيش معها.

٤. أنماط السلوك الإنساني تحدد عن طريق نتاج التفاعل بين حاجات الفرد ورغباته الذاتية وخلاصة تجاربه في الحياة، لذلك تجد لكل فرد شخصية تختلف عن غيرها من الأفراد، فقد تكون هذه الشخصية تسلطية أو متهيجة أو عنيفة أو مسالمة.

٥. توجد أنماط عامة للسلوك تنمو بحكم الانتماء إلى بيئة معينة أو جماعة محددة إذ نجد أنماط سلوك سكان المدن تختلف عن المناطق البدوية الصحراوية.

٦. وسائل الاتصالات بين الأفراد والجماعات والتطور والتنوع والأشكال التي تأخذها هذه الاتصالات يقوم الفرد بتفهمها وصياغتها بأساليب مختلفة؛ لذلك يميل الأفراد إلى تكوين انطباعات محددة عن الأشياء والأشخاص والأفكار، هذه الانطباعات تساعد على توجيه سلوك الأفراد في ناحية معينة دون أخرى[٣].

٢. التنميط *Patterning*

نعني بالنمط الأسلوب الذي يتعامل به الفرد مع الأفراد الآخرين[٤]، والنمط *Pattern* هو «نموذج تصنيفي للظواهر والأفعال والسلوك والفكر التي تمتلك كليا أو جزئيا خصائص منطقية وعناصر مشتركة يمكن أن تجمعها في قوالب واحدة مميزة لأغراض البحث التحليلية والعملية»[٥].

ويستخدم النمط للإشارة إلى بعض أنماط السلوك التي تحددها الثقافة مثل الشعائر والطقوس أو ببساطة التتابع الاعتيادي المألوف والنمطي للأنشطة الإنسانية المختلفة.

ويشير إلى السمات الصورية أو الأساليب المميزة التي تميز ثقافات معينة، والتي تدل على التواصل والاستمرارية، وقد استخدمت «روث بندكت» مفهوم النمط الثقافي على الأساليب المشتركة التي تميز ثقافة ككل وتحدد توجيه أبنائها النفسي والاجتماعي[٦].

هذه السلوكيات تتميز بالتكرار وتنتظم في نماذج محددة لتكون النموذج الفعلي الذي تنصهر فيه كل تجارب المجتمع الوافدة من الخارج أو المتأصل في البنية الاجتماعية الخاصة بهذا المجتمع[٧]، وبهذا يؤكد «كلاكهون *Cluk-hohn*» أن النمط هو الشكل الصريح لتشكيل الثقافة[٨]. إذن فالنمط الاجتماعي هو السلوك المتكرر وفقا لثقافة مجتمع ما، والذي يتم عن طريقه تعامل الفرد مع الأفراد الآخرين.

فالتنميط *Patterning* هو عملية توحيد أشكال السلوك في ثقافة مجتمع ما، ويترك المحيط السياسي والاقتصادي والاجتماعي بصمته على بناء نمط الشخصية التي تتحول إلى سمات سلوكية فاعلة في تنميط الشخصية، «لذا فإن تكوين النمط السلوكي للشخصية لابد أن يجمع بين مقومات ثلاث هي:

١. البيئة الطبيعية الجغرافية.
٢. التركيبة الاجتماعية.
٣. آليات الفعل الفردي»[٩].

قبل الفرد عن طريق الوراثة أو البيئة الاجتماعية خلال مراحل تكوين الشخصية قبل تكامل شخصيته، وقد عرفها «كيرت ليون» بأنها حصيلة التوازن بين السلوك والبيئة[١٢].

ثانيا: التجارب

١. تجربة دكتاتورية الحزب الواحد:

خضع العراق لتجارب قاسية في العصر الحديث، فمنذ ربع قرن تقريبا خضع لممارسات سياسة الحزب الواحد الدكتاتورية في عملية بناء السلطة، شملت جميع مؤسسات الدولة وأنظمتها، وامتدت إلى الأسرة والشخص، وقد مارست هذه السلطة الدكتاتورية إقصاء من يساء بهم الظن لكونهم خطرين عليها، هذا الإقصاء أسس على المنافسة وسوء الظن وحب المجد والفخار بطريق العنف، وبذريعة المؤامرة[١٣].هذه السياسة خلقت حالة من القلق والخوف حتى داخل الحزب نفسه على الرغم من حصول المنتمين إليه على بعض الامتيازات التي كان يغدقها الحزب لأعضائه، وبالتالي خلقت تلك السياسة حالة من التمايز الاجتماعي ولاسيما القوة والنفوذ[١٤]، مما جعلت سلوكيات أغلب العراقيين قلقة خائفة متحملة متذمرة مظهرية، تدعي الولاء للحزب بدافع الخوف.

٢. تجربة الحرب العراقية – الإيرانية:

مر العراق بتجربة قاسية أخرى، هي الحرب العراقية – الإيرانية التي امتدت ثمان سنوات «١٩٨٠-١٩٨٨» راح ضحيتها الكثير من الموارد المادية والبشرية، فضلا عن الضغوط التي مورست على الشخصية العراقية، ابتداء من عسكرة المجتمع المتمثلة بالتجييش الإجباري للمواطنين عن طريق ضخ الجيش بأكبر قدر ممكن من الشباب عن طريق سحب المواليد الكثيرة والكبيرة للخدمة العسكرية ولفترات طويلة تجاوز البعض منها اثني عشرة سنة، فضلا عن سحب القسم الآخر في الغالب من المواطنين الكبار في العمر وطلاب الجامعات والمدارس وجميع موظفي الدولة إلى قواطع الجيش الشعبي، وكانت هذه العسكرة تتم بواسطة العنف.

ثم إجبار المواطنين على التبرع بالمال والدم، مما جعل الشخص العراقي متحملا متذمرا ساخطا على الواقع الذي يعيش فيه، لكنه مروض السلوك عن طريق عنف الدولة، مما جعل الشخص العراقي في هذه الحالة خاضعا للأمر الواقع، تهيجه أوضاعه

المأساوية العامة والشعارات والأناشيد الوطنية التي تبث لشحذ الهمم من أجل الاستمرار في الحرب، مدعيا ومتظاهرا بحبه للسلطة، زد على ذلك معاناته لجملة من الاضطرابات النفسية والعصبية والسلوكية الناتجة عن الحرب[١٥] طويلة الأمد التي جعلت من الشخصية العراقية شخصية تميل سلوكيتها إلى العنف، مكتسبة إياه عن طريق ممارسته في الحرب وعن طريق مشاهدته للصور والأفلام التي تبث على شكل «صور من المعركة» وغيرها من الأفلام العنيفة التي تجسد القتل والدم والدمار المصاحب للحرب.

٣. تجربة غزو الكويت:

هدر العراق فرصة إيقاف الحرب مع إيران ولم يغتنمها ليستثمرها لصالح استتباب الأمن والاستقرار وبناء مجتمعه، بل اندفع إلى غزو الكويت في الثاني من آب عام ١٩٩٠، بقرار ارتجالي مفاجئ[١٦]، جعل الشخص العراقي في حيرة من أمره، متهيجا في سلوكيته، فهو على الرغم من عدم اقتناعه بهذا الغزو إلا أنه تصرف بسلوكيات عاطفية مهيجة، فقد مارس السلب والنهب والعنف ضد الكويتيين، ثم ما لبث أن ساورته مشاعر التأنيب والخجل من سلوكياته بعد مضي مدة من الوقت، استيقظ فيها من هيجانه العاطفي فتوقف الكثير من الناس عن هذه السلوكيات المتهيجة وقسم كبير قام بإرجاع ما سلبه أو سلمه إلى دور العبادة كالمساجد وغيرها، وقسم من العراقيين عاش حالة التذمر والسخط على السلطة وعلى قسم من الأشخاص الذين قاموا بسلوكيات متهيجة أباحت كل المحرمات «المقدسات» والممنوعات، لا يردعهم رادع أخلاقي أو ضبط اجتماعي، ولاسيما وهم مقتنعون بأنهم في حماية السلطة التي أباحت هذه السلوكيات والتي نبهت الأذهان إلى ما طرحه «توماس هوبز» بأن العنف والضغط واستخدام القوة هي الدوافع التي تمنع الكثير من الأشخاص خرق القانون[١٧].

٤. تجربة العدوان الخارجي والتمرد الداخلي:

بعد انسحاب الجيش العراقي مكسورا من الكويت، بعد أن نال الضربات القاسية والموجعة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها بات الشخص العراقي قلقا خائفا متهيجا في مشاعره لما لاقاه من عنف قاس من قبل قوات الولايات المتحدة وحلفائها، إذ لم تفرق هذه القوات في ضرباتها بين العسكريين والمدنيين، وصار الموت بالجملة والقلق والخوف هو السائد في حياة العراقيين، إذ قامت القوات الأمريكية وحلفائها بضرب العراق بأنواع متعددة من الأسلحة الفتاكة والممنوعة دوليا مثل القنابل العنقودية واليورانيوم المنضب والقنابل الكيمياوية الحارقة، فهي حرب وعدوان نووي، إذ استخدم فيها ٣٢٠ طن من اليورانيوم المنضب أو ما يعادل سبع قنابل نووية من نوع القنبلة التي ألقيت على هيروشيما[١٨].

هذه الأسلحة خلفت الكثير من الموتى والمعاقين والمصابين بأمراض نفسية وعصبية، زد على ذلك تخريب البنى التحتية للعراق مثل تخريب شبكات المياه والكهرباء وهدم الجسور والمدارس ومحطات الاتصال والمصانع، مما جعل العراقي متهيجا متذمرا متمردا عنيفا على مستوى السلطة والشعب.هذا الوضع أفضى إلى تمرد ضد السلطة عام ١٩٩١ قابله رد فعل عنيف من قبل السلطة، سادت على إثره حالة من الذعر استخدمت فيها السلطة القوة العنيفة لترويض الشعب والسيطرة عليه.

٥. تجربة الحصار الاقتصادي:

خضع العراق لتجربة قاسية أخرى وهي الحصار الاقتصادي منذ عام ١٩٩١ وامتد أكثر من اثنتي عشرة سنة تحمل فيها العراقي ضغط العوز والحرمان والجوع والفاقة والفقر، فلم يسلم أي مجال من مجالات المجتمع من الحصار، فكان شاملا وكانت آثاره واضحة على الشخص والأسرة والمؤسسة والمجتمع بكامله، إذ كانت نتيجة هذا الحصار أن تصرف العراقي بسلوكيات لم تكن معهودة أبدا وغير متوقعة، منها مثلا اضطرار بعض العراقيين إلى بيع بعض أجزاء من أجسامهم لقاء مبالغ من المال ولاسيما «الكلى»، وبالأخص لبعض الوافدين من الأقطار العربية، وذلك بحكم فارق العملة، إذ كانت قيمة العملة العراقية منخفضة جدا مقارنة بالعملات العربية والأجنبية الأخرى، وكذلك اضطرار العراقيين إلى بيع أثاث بيوتهم بل بيع المواد الإنشائية لبيوتهم بعد هدمها مثل الشبابيك والأبواب وغيرها، فضلا عن الازدياد المستمر في الأسعار وانخفاض مرتبات الموظفين وارتفاع نسب البطالة، وقد شاع الفساد الإداري

بأنواعه في تلك الفترة[١٩]، فضلا عن تردي الحياة الاجتماعية مثل التعليم والصحة وغيرها، وكان العراقي في هذه الفترة متحملا متذمرا ساخطا ومتهيجا، ولكنه مروض ومظهري واستهلاكي في اقتصاده، على الرغم من الحصار.

٦. تجربة العدوان والاحتلال:

امتد الحصار الاقتصادي لفترة طويلة، وقد أنهك الشخصية العراقية والمجتمع، ليرضخ بعد ذلك المجتمع لوطأة الاحتلال الذي جرّب أيضا أقسى أنواع الأسلحة الفتاكة ضد العراقيين مدمرا مؤسساته العسكرية والمدنية بقصد إنهاك وتدمير الشخصية العراقية، وجعلها شخصية غير مستقرة خائفة قلقة منفلتة متجزءة وكسر كل الرموز المعنوية لهذه الشخصية مثل الجيش والشرطة والسلطة ونهب وسلب وحرق المتاحف والآثار والمكتبات وشوه قيم ومعايير اجتماعية فاضلة قد توارثها مثل التماسك الاجتماعي والوحدة الوطنية والتعايش في ظل تعددية ثقافية متنوعة مثيرا نزعات الفتنة وكسر الضوابط الاجتماعية ولاسيما الرسمية مشجعا لحالات السلب والنهب والقتل والانفلات الاجتماعي والفساد الإداري بأنواعه، أضف إلى ذلك زيادة الأمراض العضوية والنفسية والعصبية التي رافقت العدوان بصورة مباشرة جراء استخدامه للأسلحة المدمرة والمحرمة كأمراض التشوه الخلقي والأمراض الخبيثة كالسرطان وغيرها، وكذلك زيادة في الجهل وارتفاع مستوى الأمية وزيادة وارتفاع نسبة الفقر بهدف تدمير الشخصية العراقية والمجتمع العراقي بزرع الثلاثي الشهير «الفقر – المرض – الجهل»، مكرسا بعد ذلك سلوكية الأنومي *anomie* أو الانحلال المعياري *normlessness* وهي فقدان القدرة على الانضباط وانعدام الشكل أو النموذج وانعدام الأخلاق.وعلى هذا الأساس نشطت جماعات وأشخاص في بناء علاقات فيما بينها لتفعيل السلوك المنحرف عن القيم والمثل الأخلاقية والقانونية، هدفها الأساس هو القفز على ما هو موجود فعلا، ولاسيما من الناحية المادية التي اتخذت من الترف والاستهلاك والمظهرية أهدافا لها بغض النظر عن وسائل هذا الترف مستعينة بشيوع حالات الفساد الإداري في كل مؤسسات الدولة، فاتخذت طريق السرقة والتزوير والاحتيال والاختلاس وحتى العنف سواء بشكل رمزي كالتهديد أو بشكل واقعي كالخطف والقتل أساليب في تعاملها والوصول إلى أهدافها تقابلها حالة من التراخي الاجتماعي ورخاوة من قبل السلطة في تطبيق القانون[٢٠]. وكانت أغلب هذه السلوكيات تبريرية وهي وسيلة للتخلص من المشاكل والأزمات التي يتورط فيها الأفراد ولاسيما عندما يكون السلوك مناقضا للقيم والمعايير التي يعتقد بها[٢١]، كما سادت في هذه التجربة والمرحلة حالات العنف عند الأطفال، فهذه الحالة زرعت في نفوسهم الميل والرغبة في القتال والعدوان، وكان ذلك واضحا في ألعابهم بشكل ملفت للانتباه، وغذته كثير من العوامل الاجتماعية المحيطة بهم والتي تدعو وتكرس حالات العنف[٢٢]. على الرغم من أن العراقيين تواقون لتغيير نظام السلطة تخلصا من الدكتاتورية، متأملين تحسين وتطوير وتقدم حياتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كل مجالاتها، إلا أنهم أخفقوا في استثمار هذه الفرصة «فرصة التغيير»، فباتوا هادرين للفرص التي سنحت لهم، فقد انصاعوا للتبعية الأيديولوجية التي مارسها الاحتلال ضدهم، فراحوا متهيجين عاطفيا مشحونة أفكارهم نحو التجزئة والعنف والفساد الإداري، مبررة ذلك بالواقع الاجتماعي، وتتظاهر بالحرية والاستهلاكية، فأصبحت الشخصية العراقية تتلقى قوالب جاهزة ولاسيما الاقتصادية، وبذلك صارت الشخصية العراقية في هذه الحالة متحملة للوضع غير المستقر، متذمرة من نمط العيش، ولاسيما تردي الخدمات الاجتماعية.

ثالثا: الحصيلة والتنميط

أوضحنا في مقدمة البحث بأن الشخصية ديناميكية غير مستقرة نستطيع ملاحظتها من خلال سلوك فاعليها، ونريد من هذه المحاولة استقراء الأنماط السائدة في الشخصية العراقية في ربع قرن من الزمان كانت فيه التجارب العراقية ضاغطة وقوية ومؤثرة في رسم أنماط شخصية نابعة من السلوكيات الفاعلة التي سادت في تلك التجارب، فالشخصية هي التجسيد الحي لثقافة المجتمع، وهي وليدة تفاعل الشخص بوسطه الاجتماعي والثقافي في مثل هذه التجارب، وهذا الوسط الإنسان يمكن أن يكون متجها لأحد الاتجاهين:

الاتجاه الأول: متحملا متذمرا ساخطا ومتهيجا لاستفزازات هذا المحيط التي شكلت المظهرية سمة لانفعالاته غير المستقرة، وبالتالي كان هادرا لمعظم الفرص التي سنحت له غير متعظ من تجاربه، عنيفا في ردود أفعاله بسبب التنشئة العصابية المريضة سيئة الظن، يعتريها الشك من الآخر العراقي وغيره أو بسبب الأحداث الخارجية التي لطمته بحصار وعدوان واحتلال قاس.

أو أن يكون هذا الإنسان متخذا **للاتجاه الآخر** وهو أن يكون مريضا نفسيا لشدة الضغوط التي واجهها من هذه التجارب وقد كانت شخصية العراقي منمطة بحسب الاتجاه الأول والتي سوف نذكرها فيها يأتي:

١. شخصية متحملة:

تجمع النظريات النفسية أن هناك حدودا لقدرة الإنسان على التحمل، ولاسيما العامة منهم إذا ما تجاوزه أحدهم فإنه إما أن يصاب بالأمراض النفسية والعصبية، أو يقدم على الانتحار تخلصا من الوضع الذي يعيشه، ولقد شككت الشخصية العراقية بهذه النظريات وأثبتت بواقعية مختبرة أنه لا حدود لقدرة الإنسان على التحمل[٢٣].

فالتجارب السابقة التي مر بها العراقي جعلته قلقا خائفا من السلطة التي تحكمه، خائفا متحديا صابرا لطول الحرب مع إيران، متفاجئا مذهولا جسورا مخذولا في غزو الكويت، متمردا منتفضا قلقا مخذولا متهيجا لانكسار جيشه وانسحابه من الكويت، جائعا قلقا هزيلا لطول الحصار الاقتصادي الذي أنهكه خائفا قلقا متحديا منفلتا عنيفا بسبب الاحتلال، كل هذه السلوكيات أعطت للشخصية العراقية قدرة على تحمل الشدائد والصبر، متحملا كل هذه الظروف باستثناء بعض الفترات كان فيها بعض العراقيين منفلتين غير منضبطين فاسدين في تعاملاتهم الإدارية.

٢. شخصية متذمرة:

الموقع الجغرافي الذي يعيشه العراق وما يزخر به من خيرات حقيقية على أرض الواقع ووهمية تجسدت في الروايات كما هو الحال في ألف ليلة وليلة تقابله أزمات اقتصادية وسياسية مستمرة غالبا ما حرمت عامة الناس من هذه الخيرات، ولاسيما عندما يرى العراقي أن هذه الخيرات تتبعثر للأقلية الخاصة على شكل امتيازات، ولاسيما النخب سواء منها السياسية أم العسكرية أم العشائرية بل وحتى الدينية مما جعلت الشخصية العراقية ساخطة متذمرة بسبب التناقض بين ما تسمع به من خيرات وما يقع عليه من عوز وفقر.

وقد دلت التجارب التي مر بها العراق على هذا الحال، حتى أن الشخصية العراقية باتت تشير إلى هذا الوضع في فلكلورها الشعبي كالقصص والحكايات والأغاني والأمثال الشعبية، مما جعل هذا التراث ذا سمة حزينة محرومة، وجعلت العراقي مرتابا غير راض عن وضعه المعيشي والسياسي، فنجد العراقي أيضا في أغلب الأحوال غير راض عن نظام حكمه أو قادته، وهم غالبا إما يكونون ساخطين على الحاكم غير مطيعين له إذا كان ضعيفا، مما يجعلهم متمردين عليه في بعض الأحيان، أو يكونون خاضعين للحاكم القوي الذي غالبا ما يروض هذه الشخصية العراقية بأسلوب القوة، فالعراقي في الغالب لا يرضى أو يكون متذمرا على حكامه سواء أكانوا متهاونين أم أقوياء متسلطين، ونجد العراقي في الغالب متضجرا «متأفئف» لا يعجبه الحال الذي هو عليه.

٣. شخصية متهيجة:

من الملاحظ على الشخصية العراقية سرعة هيجان العاطفة وتقلب مفاجئ في المزاج، فنجدها مندفعة في السلوك دون تفكير مسبق، إذ تثور في لحظة ثم يعتريها سبات طويل لنفس الموقف، فقد تحركها الشعارات وردود الأفعال السريعة فنجدها متقلبة في ردود الأفعال والمواقف، ومتطرفة فنجدها هائجة، وبعد فترة هادئة فهي تتأثر بسرعة بآراء الآخرين والاقتناع بها، وبعد فترة نراها تتنازل عن رأيها وموقفها، وقد علل أحد الباحثين الذي اهتم بدراسة الشخصية العراقية والمجتمع العراقي وهو المهندس «وليم ويلكوكس» أن الطبيعة وخاصة تأثير الأنهار «دجلة والفرات» كان واضحا على الشخصية العراقية، إذ أن هذه الأنهار «دجلة والفرات» تمتاز بسلوك مفاجئ، فهما يرتفعان دون سابق إنذار، وأن أرض العراق التي تمر بها هذه الأنهار شديدة الانحدار، وهذه الشدة في الانحدار تؤدي إلى هيجان الأنهار وقوة جريانها[٢٤]. كما لوحظ أن الطبيعة، ولاسيما المناخ، لها تأثيرها القوي على سلوكيات الأفراد، وبالتالي تنميط

شخصياتهم وهذا ما أكده كثير من العلماء والباحثين مثل ابن خلدون في مقدمته و«مونتسيكو» في روح القوانين و«جيري» وغيرهم، وعند ملاحظة هذا التأثير بين الظروف الطبيعية ولاسيما المناخ والشخصية العراقية نجد أن العراق يمتاز بجو متطرف، فهو إما أن يكون شديد البرودة شتاءا تصل درجة برودته إلى الصفر المئوي، أو أن نجده في الصيف شديد الحرارة قد تصل درجة الحرارة فيه إلى ٦٠ درجة مئوية، وهذا ما انعكس على الشخصية العراقية فنجدها متقلبة وغالبا ما تكون متهيجة.

٤. **شخصية مظهرية:** على الرغم من الضغوطات والصعوبات الحياتية والمعيشية التي أثقلت كاهل الشخصية العراقية إلا أنها ترغب وتحب أن تتظاهر حتى ولو بعكس ما تؤمن به، أو ما يتوفر عندها، فعلى سبيل المثال امتاز العراقي بنمط اقتصادي يتسم بالتبذير ولاسيما في عادات إعداد الطعام حتى في فترات الحصار الاقتصادي مما جعله شخصية استهلاكية أكثر مما هي إنتاجية فنجد مائدة الطعام تحتوي على حاجات يمكن الاستغناء عنها كطبخ وجبة غداء «مرق» من الطماطم نجده يزودها بمعجون الطماطم وهو قادر على الاستغناء عنها، كما نجده في رمضان يتفنن في إعداد مائدة الإفطار وتنوعها وإن كان فقيرا، وفي المجال الديني نجده يبالغ في الوعظ والإرشاد وتتظاهر بالقيم المثالية والاقتداء بالسلف الصالح إلا أنه قليل الممارسة في سلوكه لهذه القيم، فنجده «متدينا» غالبا أي متظاهرا بالدين، مبتعدا عن التطبيق الحقيقي له. وفي مجال السياسة نجده يتكلم ويجادل فيها بكل براعة، وبمختلف طبقاته إلا أنه لا يجيد العمل فيها، وفي مجال القانون أيضا فهو يرغب في تطبيقه ويدعو إليه، إلا أنه سباق في تجاوزه ولاسيما إذا تعارض مع مصالحه الشخصية، مما أشاع الفساد الإداري بشكل كبير في المجتمع العراقي حديثا وأصبح مبررا له[٢٥].كما أن الشخصية العراقية لا تجيد استثمار الفرص إذا سنحت لها، فهي هادرة لها، وقد تجسد ذلك بعد انهيار سلطة الدولة في العراق، إذ كان أغلب العراقيين يحلمون بتغيير السلطة التي قست عليهم وجرتهم إلى حروب متتالية، وعندما سنحت لهم فرصة التغيير ولو بفعل الاحتلال إلا أنهم أضاعوا هذه الفرصة فتبعثرت جهودهم في إعادة مجتمعهم وتحقيق الأمن والاستقرار، ولهذا لم يتعظوا من تجاربهم السابقة.

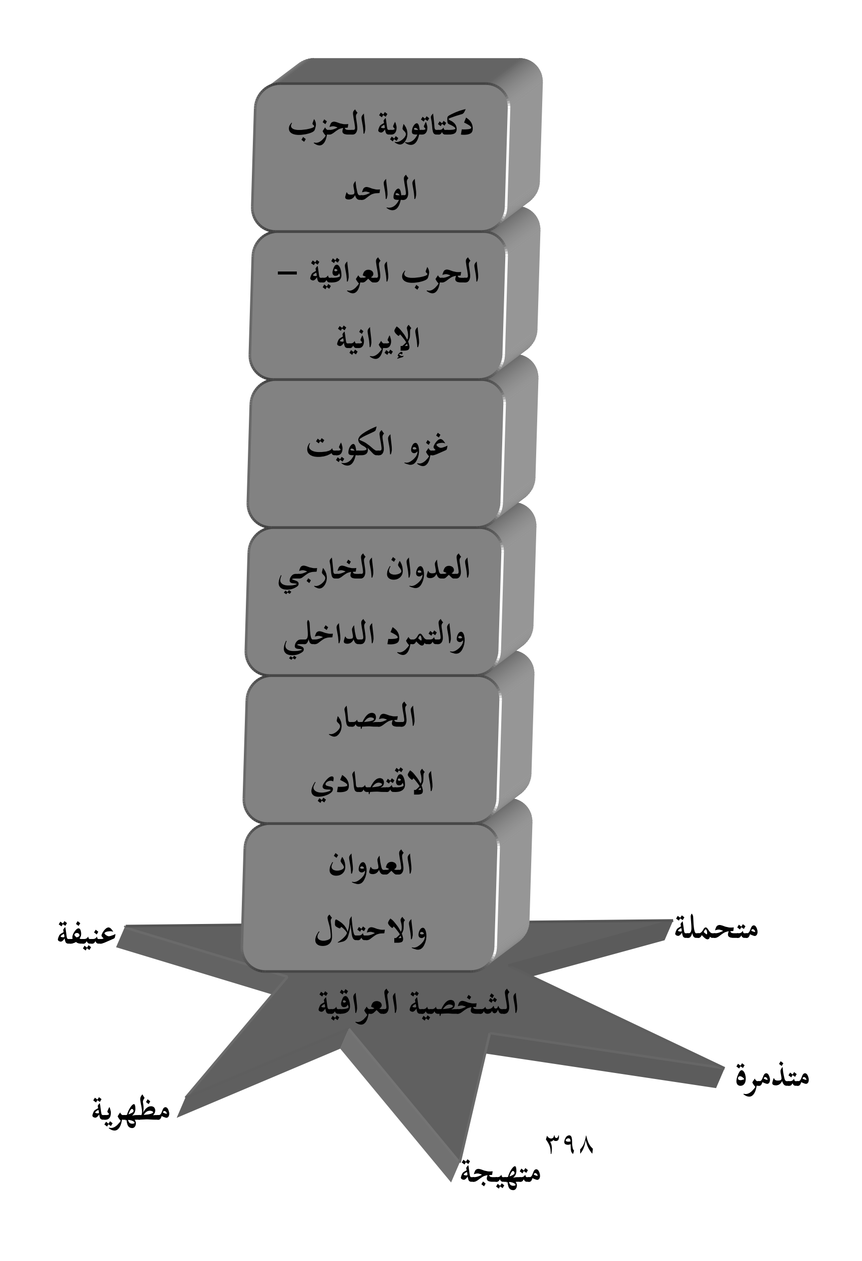
٥. **شخصية عنيفة:** لا يخلو أي مجتمع من المجتمعات من العنف، وقد ارتبط العنف بالوجود البشري منذ هابيل وقابيل ابني آدم «عليه السلام» حتى الآن، إلا أن شدة العنف واستمراريته تتفاوت وتتباين بحسب تجارب المجتمعات وتهذيب شخصياتها، والذي يهمنا في هذا البحث الشخصية العراقية، وبالتحديد الثلاث وثلاثين سنة الأخيرة، أي ما يزيد على ربع قرن من الزمان وبالتحديد منذ عام ١٩٧٩-٢٠١٢ الذي أصبحت فيه الشخصية العراقية عنيفة نتيجة لتجارب مجتمعها، وقد لا يوافق البعض على تنميط الشخصية العراقية بالعنف ويدعي أن هذه الظروف تجارب وقتية، فنحن نؤكد أنها فرضت نفسها على الواقع وبقوة ولمدة ليست بالقصيرة، ولاسيما إذا أيقنا أن الشخصية هي نمط سلوكي متكرر ومستقر بدرجة معقولة، ويمكن ملاحظتها من خلال السلوك الظاهري والذي يكون استجابة لسلوك الآخرين والظروف المحيطة بهم.

لقد خضعت الشخصية العراقية إلى العسكرة، ومن المعروف أن العسكرة نظام صار يعتمد القوة والعنف أسلوبا أساسيا في التعامل في النواحي المعنوية والمادية الرسمية وغير الرسمية، فمن الناحية المعنوية شجعت السلطة المنهارة قبل الاحتلال وفي ظروف مختلفة على إبراز أدب الحرب وفنونه الصورية والرمزية كأناشيد وطنية وأغانٍ وصور ومسرحيات ورموز حربية مقاتلة لرفع الروح المعنوية في القتال وشحذ الهمم وتقويتها في الصبر والتحمل أثناء الحروب والحصار، وكذلك الحال في أثناء وبعد الاحتلال.

ومن الناحية المادية فقد تمت عسكرة المجتمع وبالتالي عسكرة الشخصية العراقية من خلال الجيش النظامي وفروعه انتهاءا بعسكرة الجامعات والمدارس بشكل علني وصريح، وانتقل حتى إلى الملابس والتفاخر بها أو الاضطرار إلى حمل السلاح، كما انعكس هذا حتى على لعب الأطفال.ومن الناحية الرسمية فقد شاع استخدام السلاح والتعامل بالقوة وشيوع مظاهر العسكرة في الشارع كالموانع والحواجز الكونكريتية وكثرة السيطرات ومظاهر الحماية للمسؤولين المدنيين والعسكريين كاستجابة سلوكية مفروضة، وكانت هذه الاستجابات على المستوى غير الرسمي، فنجد مظاهر العنف والسلاح واليقظة والحذر والخوف منتشرة في المجتمع «الأسرة، الشارع»، وذلك لفقدان الأمان ونتيجة لضغط المؤسسات السياسية والأمنية بشكل مستمر ومكرر جعلت الشخصية العراقية تمتاز بالشك وسوء

الظن، وقد احتدمت المنافسة بين العراقيين، ولاسيما بعد الاحتلال، ولاسيما على المستوى السياسي والأمني مما جعل المنافسة الفكرية في كثير من الأحيان تتحول إلى صراع وعنف جسدي أظهرت الشخصية العراقية المبالغة في إظهار مشاعر الاستياء والغضب والجرأة الزائدة عن حدها في إبداء الرأي إلى حد إلزام الآخرين بها في بعض المواقف، وقد بالغت الشخصية العراقية في تصور العداء مستخدمة التهديد والوعيد والعنف فكانت هذه الشخصية سيئة الظن في أغلب الأحيان يعتريها الشك والريبة والمبالغة في الحذر وعدم الثقة بالآخرين وأظهرت الشخصية العراقية في أحيان كثيرة عدم انضباطها عند الكثير من الناس، منفلتة عن المعايير الاجتماعية مجسدة حالة الأنومي *anomie* الانحلال المعياري والخلقي سواء على مستوى العامة في حالات السلب والنهب والحرق والتدمير والعدوان والعنف، أم على مستوى المسؤولين والنخب في حالات الفساد الإداري والمالي حتى تصور البعض من العراقيين أن الشخصية العراقية لا تنضبط إلا بالقوة والضغط، وقد يعود ذلك إلى تعود الشخصية العراقية على استمرارية الخضوع للسلطات الدكتاتورية المتعاقبة عليه، مما جعلت الشخصية العراقية ترويضية لا تنضبط إلا بالترويض عن طريق الضغط والقوة، فإذا كانت السلطة قوية سهل ترويض الشخصية العراقية وإذا كانت السلطة ضعيفة لا يرضى عنها ويتمرد عليها.

وفيما يأتي مرتسم يوضح التجارب الضاغطة ونمط الشخصية العراقية:



المصادر:

[١] د. شاكر مصطفى سليم، قاموس الانثروبولوجيا، جامعة الكويت، ط١ ١٩٨١، الكويت، ص١٠٢.

[٢] د. محمد الصيرفي، السلوك، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٧، ص١١.

[٣] د. محمد الصيرفي، المصدر نفسه، ص١٠٣-١٠٤.

[٤] د. محمد الصيرفي، المصدر نفسه، ص٩٥.

[٥] د. سالم الساري ود. خضر زكريا، مشكلات اجتماعية راهنة، الأهالي للطباعة والنشر، سورية- دمشق، ٢٠٠٤، ص٢٩٠

[٦] شارلوت سيمور سمث، موسوعة علم الإنسان – المفاهيم والمصطلحات الانثروبولوجية، ترجمة علياء شكري وآخرون، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨، ص٧١٨-٧٢١.

[٧] د. فردريك معتوق، معجم العلوم الاجتماعية، أكاديميا، بيروت – لبنان، ١٩٩٣، ص٦٣.

[٨] شارلوت سيمور سمث، مصدر سابق، ص٧٠٣.

[٩] د. متعب مناف جاسم، التركيبة الاجتماعية في الأنبار وأثرها في بناء نمط الشخصية السلوكية، المؤتمر العلمي الأول لجامعة الأنبار – ١٣-١٥/٤/١٩٩٢، ص١.

[١٠] د. سامية حسن الساعاتي، الثقافة والشخصية بحث في علم الاجتماعي الثقافي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط٢ ١٩٨٣، ص١١٧.

[١١] دوان شلتز، نظريات الشخصية، ترجمة د. حمد دلي الكربولي ود. عبد الرحمن القيسي، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨٣، ص١١-١٥.

[١٢] دينكن ميشيل، معجم علم الاجتماع، ترجمة د. إحسان محمد الحسن، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٠، ص٢٢٧.

[١٣] د. رباح مجيد محمد الهيتي، بعد التجربة... الثقافة الوطنية لتعزيز الوحدة الوطنية، «التعددية والوحدة الوطنية... الواقع والطموح»، وقائع المؤتمر السنوي الذي عقده مركز صلاح الدين الأيوبي في جامعة تكريت بالتعاون مع بيت الحكمة للفترة ١٩-٢٠ تشرين الثاني ٢٠٠٧»، إعداد عدوية عثمان، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٩، ص١٣٣.

[١٤] د. رباح مجيد الهيتي، انهيار سلطة الدولة في العراق، دار العراب، دمشق – سوريا، ٢٠١٠، ص١١٤-١١٥.

[١٥] د. رباح مجيد الهيتي، انهيار سلطة الدولة في العراق، مصدر سابق، ص١١٦-١١٨.

[١٦] د. رباح مجيد الهيتي، انهيار سلطة الدولة في العراق، مصدر سابق، ص١١٩.

[١٧] د. رباح مجيد الهيتي، الضبط الاجتماعي وجنوح الأحداث – دراسة ميدانية للجانحين في محافظة الأنبار، رسالة ماجستير «غير منشورة»، مقدمة إلى جامعة بغداد/ كلية الآداب – قسم الاجتماع، ١٩٩٤، ص١٧.

[١٨] د. رباح مجيد الهيتي، انهيار سلطة الدولة في العراق، مصدر سابق، ص١٢٢-١٢٣.

[١٩] د. رباح مجيد الهيتي، انهيار سلطة الدولة في العراق، المصدر أعلاه، ص١٢٧-١٢٨.

[٢٠] د. رباح مجيد الهيتي، ثقافة الفساد الإداري في العراق، مسارات للتنمية الثقافية والإعلامية، بغداد – بيروت، ٢٠١٢، ص٤٢-٤٥.

[٢١] د. رباح مجيد الهيتي، ثقافة الإرهاب العراق نموذجا، مجلة العلوم التربوية والنفسية، العدد ٦٤، ٢٠٠٩، ص١٦٥.

[٢٢] د. رباح مجيد الهيتي، ثقافة الإرهاب العراق نموذجا، مصدر سابق، ص١٥٤.

[٢٣] د. قاسم حسين صالح، المجتمع العراقي تحليل سيكوسوسيولوجي لما حدث ويحدث، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت – لبنان، ٢٠٠٨، ص٢١٢.

[٢٤] د. علي الوردي، دراسة في طبيعة المجتمع العراقي، دار الحوراء، بغداد، ٢٠٠٥، ص٢٧-٢٨.

[٢٥] د. رباح مجيد الهيتي، ثقافة الفساد الإداري في العراق، مصدر سابق، ص١٨٧.